ظاهرة وتعليلها

للأستاذ أحمد أمين

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة ، ولكنه يأبى أن يجالس أمثاله من العلماء ، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيفاً من صغار الناس فى مهنتهم وعقليتهم ؛ وليس الشراب هو الذى يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن فى كثير من الأحيان .

وأعرفها فتاة على جانب من الجمال ، ولكنها لا تؤمن بجمالها ، لأن أهلها أدخلوا فى روعها من صغرها أن الجمال فى البياض والحمرة والشعر الأصفر ، وهى سمراء شديدة السمرة وليس فى وجهها حمرة ولا فى شعرها صفرة ، فهى فى اعتقادها ليس لديها من الجمال شىء ، وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شىء ، وتأبى أن تصاحب جميلة ، وخاصة اذا كان جمالها فى لونها الأبيض المشرب بحمرة .

وأعرفه فناناً كبيراً ، ولكنه يأبى أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله ويفضل أن يجلس الى مبتدئى الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم ، وهم من جانبهم يتملقونه ، ويفيضون عليه من ألقاب الثناء ما يملؤه غبطة وسروراً .

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم ، وأسمع بها كل حين وأقرأها فى وصف كثير من الرجال والنساء ، فما سرها ؟

سرها عندى أن من طبيعة الانسان أنه يكره « الضعة » ويكره كل ما يشعره بالضعة ، ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة .

من أجل هذا تراه — فى العادة — يكره أن يجالس من هو خير منه فى علمه وفنه وأدبه ، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه ؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله ، لأنه لا يحط من شأن نفسه ؛ وهو أشد حبا لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعوراً بعظمة نفسه

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية والمشاهدات المألوفة . ألست ترى أن « حلبة الكميت » أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرابهم من لا يشرب ، ويستثقلونه مهما ظرف ، ويستسمجونه مهما لطف ، لأنه يذكرهم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة ، ويشعرهم بأنهم الوضعاء وهو الرفيع ، وأنه العين الناقدة وأنه الرقيب عليهم ، وأنه العاد لسقطاتهم ، وأنه المحتفظ بقوة إرادته عن ضعف إرادتهم ؟ كل هذا يشعرهم بالضعة فيكرهونه ، ويبدءون بالالحاح عليه أن يشرب لا حباً فيه ولكن حباً لأنفسهم ، وإبعاداً لشعورهم بضعتهم ، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذا نجحوا أمنوا الشعور بالضعة ، وإذا فشلوا مقتوه ومقتوا جلوسه بينهم ، لأنه نغص عليهم بهجتهم — ومن أجل هذا أيضاً أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر ، وأحبوا أن يسمعوا من يفلسف لهم الحياة وأنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت . فان تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبأ بحرام ولا حلال ، وأن يقول كما قال أبو نواس :

فان قالوا حرام قل حرام فان لذاذة العيش الحرام

فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره .

* * *

هذا هو سبب العداء دائما بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرذل ، وهذا هو السبب فى أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل . لأن الرذل هو الذى يشعر بالضعة من رؤية الفاضل .

وهو السبب فى أن الفقير يكره الغنى أكثر من كره الغنى للفقير . لأن الفقير هو الذى يشعر بالضعة إذا قاس نفسه بالغنى

وكثيراً ما يكون سبباً فى فساد الحياة الزوجية ، أن تكون فى أحد الزوجين صفات راقية ليست فى الآخر ، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قرينه فتسوء الحياة ويجهل السبب .

* * *

بل أرى أن فى هذا القانون تفسيراً لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس .

فتفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحي الخلقية أو العلمية أو الاجتماعية

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس ، أو أن فى جسمهم عاهة من العاهات ، أو أنهم إذا جودلوا أفحموا ، أو إذا نيل منهم لم يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم . فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها ، ويصبون جام غضبهم وسخطهم على الناس ويطنبون فى ذم الأخلاق وسوء المجتمعات ـ والسير وراء ذلك كله ، وهو نقص فى محب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه فى المجتمعات ؛ وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها ، وهو لا يحب أن يلوم نفسه وهى السبب ، لأن فى هذا ضعة أيضاً ، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات ، ويكون مثله مثل من عجز من أن ينتقم من عدوه ، فانتقم من صديقه

***

أتدرى السبب فى أن الشباب لا يودون كثيرا أن يجالسوا آباءهم ولا إخوتهم ولا أقرباءهم ويفضلون ـ غالبا ـ أن يجالسوا الغرباء ؟

هو أيضا ـ هذا القانون ، فان آباءهم وإخوتهم وأقرباءهم يعلمون نشأتهم وكل شىء فيهم ، وكل شىء حولهم ، وفى ذلك عيوب عرفوها ، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم ، فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذا جلس إليهم ، وهذا يشعره بالضعة . فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء ، لأنهم يجهلون تاريخه ، ويجهلون زلاته فهو عندهم لا يشعر بنقص ، ولا يشعر بضعة ، فكان إليهم أميل ، وبهم آنس ؛ والمثل العربى يقول « برّق لمن لا يعرفك » ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك ، لأن من عرفك لا يعبأ بك

لقد كان لى أستاذ فى سن الخمسين وكان جلساؤه أقلهم فى سن الستين ، فسألته فى ذلك فقال : إنى اخترتهم لأنى أشعر وأنا معهم أنى شاب

***

بل هذا هو السر فى أن الرذيلة فى كثير من الأحيان توثق الصداقة بين أصحابها ، فالمقامر أقرب إلى صداقة المقامر ، ومدمن الخمر إلى مدمنها ، والغزل إلى الغزل ، واللص إلى اللص ، وقل أن ترى ذلك فى الفضيلة ، فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما ، ولا العدل إلى العدل ، ولا الصريح إلى الصريح

والسبب فى هذا أن ذوى الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأراذل مثلهم حتى يتجردوا من هذا الشعور ؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب ـ وهو السبب فى احتجاج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ ، فحجرة المقامرة مستورة ، ومجلس الشراب فى مخبأ ، والغزلون يتسترون ، ومحال الحشيش والكوكايين فى حرز الخ ، وليس السبب فى ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم ، بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبيحت من رجال الأمن لتستروا أيضا لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا فى الرذيلة انغماسهم

***

ألست ترى معى أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاء وأشد الناس وحشة ، وكلما اشتد فى تزمته اشتد الناس فى كراهيته ، وأن الرجل كلما سما عقله بعد عن الناس وبعدوا عنه ، وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه ، لأن سموه إعلان لضعفهم ، وعلوه رمز لضعتهم ؟

ولعل كثيرا من صفحات التاريخ المملوءة باضطهاد العظماء ، وقتل النبغاء ، واغتيال الأبطال ، تستر وراءها هذا السر الكامن الخطير ، وهو أن الاضطهاد والقتل والاغتيال كان سببه الخفى شعور المدبرين بضعتهم أمام هؤلاء العظماء فتخلصوا من الشعور بالضعة بالقضاء على من كانوا سببه ـ فلما انمحوا من الوجود كان لا بأس عند من قتلوهم أن يمجدوهم ، وأن تمجدهم القرون بعدهم ، لأن الحقيقة الواقعة أشد إشعارا بالضعة من الذكرى الماضية

***

وبعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة وأن يجلس عالمهم إلى من هو أعلم منه ، وفنانهم إلى من هو أفن منه ، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه ، يستفيد منه ويأخذ عنه فى غير حقد ولا ضغن إلا بكثير من مجاهدة النفس وهيهات ثم هيهات

أحمد أمين